رحلة الى دير طور سينا

للأستاذ الدمرداش محمد

عضو ادارة الاتحاد والمحلات بمراقبة الجمارك

٢

ما قد وصلنا الدير بعد ثلاثة أيام ، قضى نهوم على ظهر مطيه لقد كان السفر برا وبحرا على أحسن حال . فقد جلنا أمام الباب وأرسلنا أذن الدخول لان القطار مع أحد خدمة الدير . وبعد برهة خرج الينا أحد القساوسة فرحب بنا ثم قادنا الى دهليز ضيق كمدخل الطوافي الذي الى طريق صاعد . ثم الى طرقة تطل على كنيسة . ثم ارتقينا سلما ينتهي الى ساحة مكشوفة فيها حجرة كبيرة استقبلنا فيها واقفا رئيس الدير . وبعد أن صافحنا جلس وجلسنا على مقاعد وثيرة . بعد ساعة عبارات التحية والترحيب دخل الخادم يحمل بين يديه صحنا من الفضة عليها كؤوس صغيرة بها شراب الزبيب فطاف بها علينا . ثم خرج وعاد يحمل صينية أخرى عليها أقداح كبيرة فيها قهوة لم أذق ألذ منها . ثم وفد الى الحجرة قساوسة الدير بملابسهم الكهنوتية السوداء . وقماتهم العالية . وكان عددهم ثمانية . فحيونا ببشاشة ولطف . وجلسوا على المقاعد القريبة من الرئيس . وبعد حديث قصير وأسئلة شتى وقف الرئيس وانصرف الى مكتبه . وقادنا القسوس الى الأماكن المعدة لنزولنا . وهي صف طويل من الحجرات أمامها ممشى مسقوف وبتوسطها دورة مياه ومطبخ وحجرة للمائدة والحجر . كثيرة الأثاث والرياش فيها الأسرة والمقاعد والدواليب والصور وأرضها مغطاة بالسجاجيد والأبسطة وحجرة المائدة كاملة المعدات . وبالجملة يتوافر في مكان الضيافة جميع وسائل الراحة مع النظافة وحسن الترتيب ونوافذ الحجر تطل من علو شاهق على مدخل الدير وحديقته .

منظر الدير يرى الكنيسة وجبل الجبانة والمدفنة

وتشرف على الجبال والوديان والمسالك لمسافة بعيدة

وبعد ان استرحنا وتناولنا الغداء تفرغنا في نواحي الدير للفرجة وخرجت أنا وأربعة من الرفاق نصعد الى قمة جبل المناجاة أو جبل موسى عليه السلام .

وتبدأ الطريق المؤدية الى القمة من قاعدة الدير في الجهة الجنوبية عاقدة رأسية تقريبا على درج من حجر مرصوص يشبه الدرج العادي . وقد مكثنا نصعد هذه السلالم نحو ساعتين ونحن نلهث لهثا شديدا من فرط ما أصابنا من الاعياء والتعب . وقبل بلوغنا القمة اجتزنا فجوة في الجبل دخلنا منها الى رحبة فيها كنيسة

جبل موسى : بالقرب من القمة

وحديقة صغيرة ينمو فيها شجر السرو . تسقى من بئر يفيض ماؤه العذب على جوانب الصخر .

استرحنا قليلا ثم استأنفنا الصعود . وبعد نصف الساعة تقريبا وقفنا على قمة جبل موسى . وهي على ارتفاع ٢٢٠٠ متر من سطح البحر (نحو ٨٠٠٠ قدم) وكان الهواء باردا والسماء صافية والشمس تؤذن بالمغيب . فأجلنا النظر فيما حولنا ، فكان منظرا ساحرا بديعا لم تر العين أجمل منه . فضوء الشمس ينعكس على القمم بلون أحمر كلون الشفق وعلى جوانب الجبال بلون أزرق قاتم كالدخان وبلون أحمر شرب بالزرقة على الربى والتلاع ، وفي الجنوب البعيد ما البحر الأحمر يتلألأ تحت أشعة الشمس . ومن تحتنا تتقابل الوديان وتتقاطع متجهة كل صوب كأسارير الوجه العجوز . فلما عدت الى نفسي وجدتني مسند الظهر الى حائط مسجد صغير وعلى بعد خطوات منه كنيسة صغيرة كذلك . فلم أتمالك ان دخلت المسجد أنا وصديقي الأستاذ فريد أبو حديد (ألبسه الله ثوب العافية) وركعنا لله ساجدين بقلوب خاشعة ونفوس طافحة بالذكريات التاريخية والدينية . وعند خروجنا من المسجد لحقنا جماعة من البدو رجالا ونساء وأطفالا وقد جلسوا في وحدة تحت جدار المسجد من جهته المقابلة حول نار

أوقدوها للتدفئة فلما رأونا هبوا الينا يهللين مكبرين . فصافحناهم وتبادلنا واياهم التحيات والتمنيات . ثم سألناهم عن سبب وجودهم هنا في هذا البرد القارص . فقالوا قد جرت العادة من قديم الزمان ان يجتمع هنا يوم رفعة عيد الأضحى المبارك . ثم نقضي الليلة . وفي الصباح نصلي صلاة العيد في هذا المسجد العتيق ونحر وبعد تبادل التهنئات والدعوات الصالحات نفترق عائدين الى وديارنا .

ملأنا العين بهذه المناظر الفريدة ثم عدنا أدراجنا الى الدير وقد غابت الشمس وظهر القمر . فكان الهبوط أسهل من الصعود وأكثر حظا بسبب الظلام

جبل المناجاة ، الطريق الى القمة

في صباح اليوم الخامس جلنا في الدير وشتملاته وملحقاته . فالدير نفسه من حيث هندسته واسواره وطرقاته ومخابئه وأقبيته وسلاله الحلزونية الكثيرة وابراجه وعيون المدافع ومواضعها أكثر شبها بالحصن منه بالدير . والحقيقة أنه بني ليكون معقلا للرهبان يقيهم غزوات البدو . والمشهور أنه بدىء في تشييده سنة ٥٢٧ ميلادية اثناء حكم الامبراطور البيزانطي يوستينيانوس

يبلغ طول الدير نحو ٣٠٠ متر وعرضه نحو ٢٠٠ متر وارتفاعه في المتوسط نحو ١٥ مترا وهو مبني بحجر الجرانيت المنحوت . ويوجد في فنائه كنيسة كبيرة ينزل اليها بسلالم ، وهو عامرة بالتحف الثمينة من شمعدانات وثريات ومصورات وما الى ذلك من الأشياء الكنسية ذات القيمة الغالية ، والكنيسة أفخر مباني الدير وأجملها من حيث المباني والزخرف ، ولها برج عال معلقة فيه الأجراس النحاسية الكبيرة . وتقام فيها الشعائر الدينية في أوقاتها .

وفي الجهة الشرقية من الدير صوامع الرهبان . وهم لا يخرجون منها الا نادرا . وقد تقابلت مصادفة بواحد منهم اثناء تجوالي في الدير فرأيته شيخا ضعيفا لا يقوى على السير الا بصعوبة ، ومجرد ان وقع نظره علي أسرع الى أقرب صومعة واختفى فيها بحالة عصبية دهشت لها وعدد رهبان الدير الآن لا يزيد على العشرين مع أن عددهم قبل الحرب كان كبيرا . وهم من شعوب مختلفة . معظمهم من روسيا والأمم السلافية الأخرى . وليس لهؤلاء الرهبان من عمل في الدير الا النسك والعبادة . أما شئونه الأخرى من ادارة واقامة شعائر وحراسة فهي من وظائف القساوسة . وبالقرب من الكنيسة وعلى مستوى أعلى منها جامع أثري صغير مفروشة أرضه بالبسط . وفيه منبر صغير ويلتصق بالجامع مئذنة مرتفعة . وهو يفتح للصلاة في أوقاتها الخمسة .

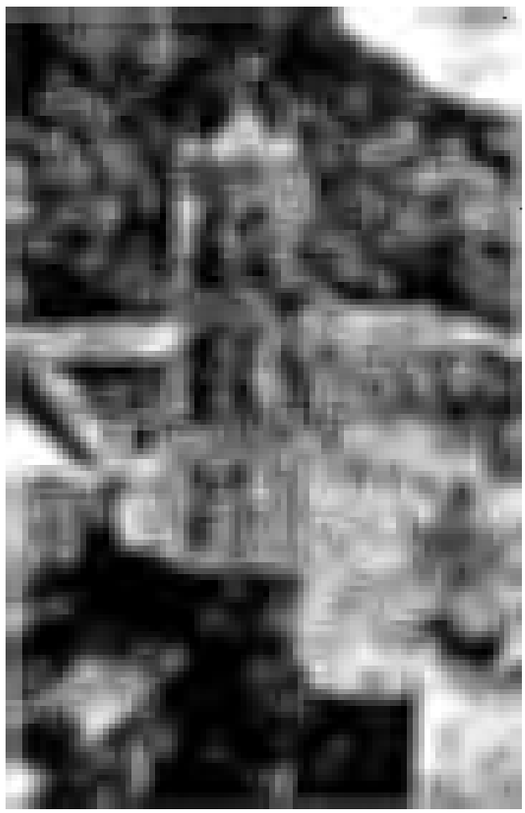

الدير : منظر داخلي

وفي أقبية الدير شاهدت طاحونا يديرها بغل . وبجوارها مخبز يصنع فيه الخبز اللازم لرجال الدير وللتوزيع على البدو على حسب العادة التي جرى عليها الرهبان من زمن بعيد .

وفي الجهة الشمالية حجر القساوسة ومكتبة الدير وكانت مغلقة .

وامام الدير حديقة واسعة منسقة تنسيقا حسنا . وبها كثير من أشجار السرو والتين والزيتون والموالح والكروم . ومزروع فيها شتى البقول والخضر والزهور الجميلة . وفي ناحية منها كنيسة الجماجم ، وهو بناء حديث جمعت فيه جماجم وعظام الرهبان والقساوسة الذين توفوا بالدير من عصور بعيدة . وقد رصت فيها

صعودا بعضها فوق بعض ووضع بعضها فى صناديق خاصة تكريما لأصحابها، أما المكانتهم الكهنوتية أو نيابتهم اتنا حياتهم بعمل مجد للدير

ويبقى الدير والحديقة من عيون عدنة على شكل آثار قليلة الغور

وبعد ظهر هذا اليوم نفرقنا نجوس خلال الوديان القريبة . ومن أجل المشاهد منظر الصوامع المنتشرة بين الربى على الجبال المحيطة بالدير ، وترى بجانب كل صومعة شجرة سرو طويلة أو نخلة تسقى من نبع أو تزول بسيل ماؤه على الصخر فيفيض فى المنخفضات والثقوب ، وفى الوصول الى هذه الصوامع صعوبة لوعورة الطريق أو لزلاقها أو انحدارها الشديد ، وللقساوسة حكايات ونوادر طريفة يروونها عن تاريخ كل من هذه الصوامع أو المشاهد لا يتسع المجال هنا لسردها

وفى صباح اليوم السادس قفلنا راجعين الى القاهرة فوصلناها سالمين مغتبطين فى مساء اليوم السابع

أديب

(بقية المنشور على صفحة ٣٥)

المطبخ فأكون كغيرى من الناس ، وانما أحب أن أشرف على القاهرة وأن أخيل الى نفسى أنى لست منغمسا فيها وأنى أدخلها اذا غدوت الى عملى مع الصبح وأخرج منها اذا رحت الى بيتى مع الليل . ولست أخفى عليك انى أجد لذة قوية حين أدخل المدينة مع النهار هابطا اليها من هذه الربوة كأنى أغزوها وأسقط عليها سقوط النسر على فريسته . واجد لذة أخرى ليست أقل من تلك اللذة قوة حين أمضى النهار كله فى المدينة مضطربا مع الناس فيما يضطربون فيه من عمل ، خائضا مع الناس فيما يخوضون فيه من حديث ، مشاركا للناس فيما يأتون من خير وشر ، ناقما ضارا منتفعا محتملا للضرر ، حتى اذا كان المساء ضقت بهم وضاقوا بى وأويت الى جامعتكم هذه الجديدة أريح نفسى مما أسمع من كلام فيه المتع وفيه السخف ، ولكنه على كل حال ليس بذى غناء ، حتى اذا أخذت بحظى من هذه الراحة الأولى رحت الى بيتى فلا أسل عن هذا الشعور العذب الذى ينبسط على قلبى شيئا فشيئا ، كلما دنوت من هذا المكان أحس كأنى أنسل من المدينة وانخفف من أثقالها وألقى آثامها من وراءى وأطهر جسمى ونفسى من أوضارها وأدرانها حتى اذا رقيت هذه الربوة وبلغت قمتها هذه (وكنت قد أحسست الجهد من الصعيد فى طريق عالية ملتوية) وقفت وقفة من كان فى مكروه تخلص منه . وأرسلت زفرة يخيل الى أنها تحمل بقية ما علق بنفسى من شر المدينة . ثم تنفست ملء رئتى مرة ومرة ثم أقبلت هادئا مطمئنا تصير الخطى الى هذا الباب . وهنا وقفت ودق الباب دقتين ففتح لنا ثم أغلق من دوننا

طه حسين

طرف من شعر السلاطين

« بقية المنشور على صفحة ٣٧ »

لا تحسبن هذا الفلك القدار يمكن للسرور
فانه يضمر جوراً ويبدى صفاء
قد سير طيبى آلامى بنظرة واحدة
كأنه لقمان يذهب يده بالسقام
ان ضللت طريق العشق فسل « عدنى »
فهو يهدى الى السبيل كل من أضل طريقه يهدى

السلطان سليمان القانونى « محبى »

ان الذى يؤثر الفقر(١) لا يريد عرشاً ولا ايوانا
ولا يبغى لنفسه طعاماً إلا من زاد الأحزان
ولن يتبوأ عرش القناعة ملكا حرا
لا يريد أن يكون سلطاناً على سبعة الأقاليم كلها

***

انما أهل العشق من يقيم فى دار الحبيب
يحن ولكن لا يريد الصحارى ولا الجبال
يامحبى : من يشرب قدحا من يد حبيبه
لا يرد حتى ماء الحيوان من يد الخضر

***

لا شىء أعظم من الدولة فى هذا العالم
ولكن الدولة فى هذه الدنيا لا تزن نفساً واحدا من العافية .
ما هذا الذى يسمى سلطنة إلا مرض الخليقة
وما فى هذه الدنيا سعادة ولا مجد كالوحدة
دع هذا العيش واللهو فالى الفناء المصير
واذا أردت الصديق الباقى فلا شىء كالطاعة
ان يكن عمرك عدد الرمال
فلن يبلغ ساعة واحدة فى زجاجة هذا الفلك (٢)
إن ترد الحضور يامحبى فأفرغ قلبك
فليس للوحدة مقام كزاوية العزلة

عبد الوهاب عزام

---

(١) اللفظ بمناسبة الفقر للصوفى كما يعلم

(٢) إشارة لطيفة الى الساعة الرملية التى يوضع فيها الرمل فى زجاجة ثم يخلى الزمان نزول الرمل منها .